الحياة كخيرٍ أسمى

مقدّمة

نحن اليوم كمسيحيين أمام تحدّ كبير وهو الإعلان عن حقيقة أنتروبولوجيّة بيبليّة مهمّة بأنّ اللّه خلق الإنسان على صورته كمثاله. هذا يتطلّب منّا، وبالمحدوديّة التي نتميز بها، أن يكون لنا كلمتنا بخصوص حياتنا والغاية التي من أجلها وجدنا. يشارك الإنسان اليوم في عمليّة الخلق بتناغم وبتعاون مع الله الذي يوكل للرّوح القدس المبادرة والسلطة والتنفيذ للوصول بالإنسان إلى هذا المأرب. إنطلاقاً من هذا المبدأ المهمّ في كنيستنا، كلّ تقييم لأيّ تدخّل في مسألة الحياة يخضع للثوابت التي ندافع عنها كمسيحيين : إنّ مصدر الإنسان إلهي ومصيره أبديّ. إذا أردنا الدخول في نقاش مع من يدافع عن الإنسان الذي لا يؤمن بشيء ولا يهتم لشيء ويسعى لتحقيق رغائبه الآنيّة، لا داعي للتكلّم لا عن مسؤوليّة الإنسان ولا عن شهادته، لا عن دعوته ولا عن حقيقته.

الجنين والإجهاض

نقول في مجالسنا الشعبيّة أنّه من غير الممكن أن نتعايش مع فكرة وجود ولد في رحم أمّه غير مرغوب به أو معوّق أو مشوّه. وأنّ الكنيسة لا يمكن أن تقبل أن يتعذّب الأهل أو الولد أو أن يكون هذا الأخير عبئاً على المجتمع.

نلاحظ أنّ هذه الأصوات تعلو أكثر فأكثر مطالبة بالسماح بالإجهاض عندما يجد الزوجان ضرورة في ذلك. فهما أدرى بما يعيشانه ويعرفان مصلحتهما ومصلحة الجنين وقادران على أخذ القرار المناسب. من هنا يعتبر البعض أنّ الكنيسة رجعيّة في آرائها ومتأخّرة في قراراتها. فرفضها للإجهاض في حالات معيّنة هو رفض للتطوّر ولحريّة المرأة ولسلامة العيش بين الزوجين، ولإستقرار العائلة، و....

الجدير ذكره أنّ عمليّات الإجهاض في لبنان ليست مرتبطة بأغلبيّتها بإعاقات أو بتشوّهات خطيرة على الولد أو على أمّه. إنّها عمليّات إجهاض على الطلب وفق مصطلحات محدّدة. لذلك إنّ تعاطينا مع الجنين في أغلب الأحيان يكون على قاعدة "تكون أو لا تكون" بغضّ النّظر عن حالته الصحيّة. فالمطلوب أن نتعامل معه ككائن بشري فيه جزء من أمّه ومن أبيه وعنده أيضاً شخصيّته المميّزة. الجنين في بطن أمّه ليس جزءاً من جسد المرأة بل له كيانه الخاص حتى لو كان مرتبطاً مباشرة بأمّه.

إنّ الدفاع عن الحياة لا يعني إطلاقاً حصر دور المرأة بالإنجاب. إنّ رفض الإجهاض لا يعني الإنجاب اللاواعي والغير منظّم. أمّا إذا طُلب من المرأة الّا توقف حبلها فهذا ليس إستغلالاً ولا إستعباداً لها. أنا لا

أنكر حق المرأة بعيش حريّتها التي هي عطيّة من الله، وحقّها بالإهتمام بجسدها فهي مؤتمنة عليه. ولكنّ الجنين كائن بشريّ وعنده، منذ التلقيح، هويّة جينيّة كاملة بعكس ما يشيّعه البعض في لبنان لطمأنة الوالدين. فإذا قضينا على هذا الجنين فلن يكون هناك آخر مثله. فنحن إذا مؤتمنون على هذا الجنين ولا يمكننا التفريط به. فهو، كما أشرنا، لم يطلب منّا المجيء إلى هذه الحياة وليس قادراً على التعبير عن ذلك وعلى حماية نفسه من البالغين.

قدسيّة الحياة البشريّة

الحياة خير أساسي معطى من الله. هذه الهبة هي مشاركة بحياة الله. هذه الهبة ليست هديّة تُستعمل كما يشاء الإنسان. إنّها معطاة للإنسان كرسالة يتحمّل مسؤوليّتها. هذه الهبة تتجلّى على مستوى العلاقة المسؤولة والمحترمة. إنّ قدسيّة حياة الجنين مرتبطة بمصدره الإلهي وبمصيره الأبدي. يقول يوحنّا بولس الثاني في رسالته "إنجيل الحياة" أنّ "حياة الإنسان مقدّسة لأنها تفترض، منذ البدء، عمل الله الخلاّق، وتظلّ أبداً في علاقة خاصة مع الخالق، هدفها الوحيد. فالله هو سيد الحياة من بدايتها حتى نهايتها: ولا يسوغ لأحد، أياً كانت الظروف، أن يدّعي لنفسه حق القضاء مباشرة على كائن بشري بريء". بهذه الكلمات تعرض وثيقة "عطية الحياة" المحتوى الأساسي لما أوحاه الله في شأن قدسيّة الحياة البشرية وحصانتها. (عدد ٥٣). لا يمكننا أن نتعاطى مع الحياة كمصطلح يختلف بين دولة وأخرى وبين مجتمع وآخر. المسألة ليست مزاجيّة أو نسبيّة تدخل في مداولات البورصة التقنيّة والإجتماعيّة. من هنا، مهما تبدّلت القوانين وأصبحت الدول تشرّع الإجهاض في كل مراحل الحمل، لا يمكن لهذا التصرّف أن يصبح مشروعاً، ولن تتوقّف الكنيسة عن المطالبة بحماية الجنين لأنّه الكائن الأضعف والمحتاج أكثر من غيره إلى العناية.

الحياة هي أساس كلّ القيم الأخرى. حتّى الحريّة، التي هي قيمة أساسيّة، لا تتحقّق من دون الحياة. إذا لم يكن هناك من تركيز واضح على الإجهاض في النصوص الكتابيّة، بإستثناء بعض الإشارات : مز ١٣٩/١٣-١٦ أش٤٩/٥١ وإرميا١/٥ وغل ١/١٥-١٦ وخر٢١/١٢-٢٣ فإنّ الكنيسة إستندت بصورة خاصّة على سيادة الله على كلّ جوانب الوجود البشري من الحبل إلى الموت. وهذه الحياة تشهد للشراكة الحميمة التي يبنيها الله مع الإنسان واهباً إيّاها صفة الشراكة التي يتميز بها الشخص البشري. يضيف البابا في الرسالة عينها "إنّ وصيّة لا تقتل تبيّن الحدّ الأقصى الذي لا يمكن أن نتخطاه، ولكنها، ضمنياً، تحمل الإنسان على أن يتمسّك بموقف إيجابي من الاحترام المطلق للحياة يفضي به إلى تعزيزها والتقدم في طريق المحبة وما تقتضيه من بذل وانفتاح وخدمة. (...) ويؤكد بولس "أن الوصية التي تقول لا تقتل وسواها من الوصايا تتلخص في هذه الكلمة: "أحبب قريبك حبّك لنفسك!" (روم ١٣ / ٩، غل ٥ / ١٤).

التكلّم عن قدسيّة الحياة يعني التكلّم عن الشخص. نتطلّع اليوم إلى الشخص وكأنّنا نتكلّم عن الفرد. وهذا غير دقيق. إنّنا نتميز عن بعضنا كأفراد ونتّحد ببعضنا وبالله كأشخاص برباط الشراكة والتواصل. ومثالنا في الشراكة هو الثالوث. فالمعنى السامي للحياة غير محصور فقط بالإنسان بل بالله. فهذه الحياة مدعوّة لتكون مع الله وهدفها عيش الملكوت. فلا تُفهم الحياة إذا على أنّها ملكاً لأحد، بل كهبة. ولا يمكن أن تكون مستندة على مبدأ الإستقلاليّة المطلقة بل على مبدأ أنّ الإنسان هو وكيل خليقة الله.

الحياة في جانبها البيولوجي ليس خيراً مطلقاً يجب الحفاظ عليه لذاته مهما كان الثمن. قيمتها السامية تتجلّى خارج كلّ الحدود البشريّة. من هنا لكي نتحاشى عبادة الحياة أو الوقوع في النسبيّة علينا أن نعترف بأنّ قدسيّة الحياة تكمن في الشخص وليس في الوجود الجسدي. عندها لا يعود هناك من صراع بين قدسيّة الحياة ونوعيّتها. فالأولى تشدّد على المصدر السامي وعلى معنى الوجود الإنساني. والثانية تمهّد الطريق للحياة الأبديّة. إنّ هذه النوعيّة الشخصيّة غير مرتبطة مباشرة بقدرة هذا الفرد على عيش حبّ الله بطريقة مباشرة. لذا فإنّ الجنين يحافظ على نوعيّة شخصه بغضّ النظر عن مقدرته على إقامة علاقة شخصيّة أو على أن يعي ذاته. العلاقة بين قدسيّة الحياة ونوعيّتها تسعى دائماً إلى البحث عن مصلحة الولد وليس فقط عن راحة الأهل والجسم الطبّي وشركات التأمين.

الخاتمة

إنّ قرار إنجاب ولد مسؤوليّة كبيرة، وله نتائج مهمّة على حياة العائلة. إنّما القرار بالإجهاض لا يمكن أن يبرّر بأنّه قرار من أجل حياة أفضل للمرأة أو للعائلة أو من أجل إفساح المجال أمام فرصة أخرى للإنجاب في ظروف أكثر ملائمة. ليس ثمّة ظرف أو غاية أو قانون في العالم بإمكانهم أن يسوّغوا عملاً لا شرعياً في ذاته بسبب منافاته لشريعة الله المكتوبة في قلب كلّ إنسان والتي يميزها العقل وتعلنها الكنيسة.

ألجنين ليس عدوّاً لأحد. إنّه يتطلّب تضحيات معيّنة. فلا داعي لتضليل الناس وللضغط عليهم ولترهيبهم وللإيحاء إليهم أنّ عمليّة الإجهاض تُحلّ قانونياً في عيادات الأطبّاء أو في دهاليز بعض المستشفيات. كفاناً تبعيّة لسياسة الهروب إلى الأمام. إنّ الإجهاض يُظهر إستقالة المجتمع من دوره وتخلّي الإنسان عن رسالته. إنّ إحترام الإنسان، كلّ إنسان، لا يقف عند عمر معيّن أو حالة معيّنة أو درجة معيّنة.

الكنيسة هي خبيرة بالإنسانيّة وحامية لحقوق الإنسان لكن علينا أن لا نتباهى بالفضيلة وكأنّنا نناضل وحدنا من أجل الحياة. إنّ مدافعتنا عن الحياة لا تعني : "الحياة مهما كان الثمن" كما لا تعني ربط الحياة فقط بتركيبتها البيولوجيّة والجينيّة. ما علينا عمله أوّلاً هو حماية هذه الحياة على ما هي عليه.

مجلة الأبرشيّة كانون الأول ٢٠١٧